بسم الله الرحمن الرحيم

٨٤ - سورة الانشقاق

وتسمى سورة إذا السماء انشقت . وهى مكية . وهى خمس وعشرون آية . قيل ترتيب هذه السور الثلاث ظاهر . لأن فى (انفطرت) تعريف الحفظة الكاتبين وفى (المطففين) مقرّ كتبهم . وفى هذه عرضها للقيامة . روى الإمام مالك[1] عن أبى سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: إذا السماء انشقت . فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. ورواه مسلم[2] والنسائىّ[3]. وأخرج البخارىّ[4] عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة . فقرأ (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) فسجد . فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم ﷺ . فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وفى رواية للنسائى[5] عن أبى هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ) و (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

(٤) أخرجه فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن ، ١١ ـ باب من قرأ السجدة فى الصلاة فسجد بها . حديث رقم ٤٦٦ .

(٥) أخرجها فى : ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٥١ ـ باب السجود فى إذا السماء انشقت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ)

[٢] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ)

[٤] (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)

[٥] (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ » أى انصدعت وتقطعت كما تقدم فى قوله[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ) « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى سمعت له فى تصدعها وتشققها . وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته ، حين أراد انشقاقها ، انقياد المطواع الذى يستمع للآمر ويذعن له . قال ابن جرير[٢] : العرب تقول (أذن لك فى هـذا إذناً) بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذى روى[٣] عن النبيّ ﷺ : ما أذن الله لشىء ما أذن لنبيّ يتغنى بالقرآن . يعنى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبيّ يتغنى بالقرآن . ومنه قول الشاعر[٤] :

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عندهم أَذِنُوا

(١) [٨٢ / الانفطار / ١] .
(٢) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٢ ـ باب قول الله تعالى : وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .
(٤) الحماسية رقم ٦٠٦ لقعنب بن أم صاحب . وأولها :

إن يسمعوا رِيبةً طارُوا بها فرَحاً منى ، وما سَمِعوا من صَالحٍ دَفَنُوا

أذنوا : استمعوا ، يقال : أذن لـكذا وكذا ، يأذن إذنا .
ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأُذُن ، الحاسّة .

ومعنى قوله تعالى (وَحُقَّتْ) أى : حق لها ووجب أن تنقاد لأمر القادر ولا تمتنع . وهى حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له فى قبضة تصرفه . قال المعرب : الأصل حق الله طاعتها . ولما كان الإسناد فى الآية إلى السماء نفسها ، والتقدير : وحقت هى ، كان أصل الكلام على تقدير مضاف فى الضمير المستكنّ فى الفعل . أى وحق سماعها وطاعتها . فحذف المضاف، ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه «وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ» أى بسطت وجعلت مستوية . وذلك بنسف جبالها وآكامها كما قال[1] (قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا) ولذا قال ابن عباس : مدت مد الأديم العكاظىّ . لأن الأديم إذا مدّ ، زال كل انثناء فيه واستوى « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا » أى ما فى جوفها من الكنوز والأموات « وَتَخَلَّتْ » أى : وخلت غاية الخلوّ ، حتى لم يبق شىء فى باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها فى الخلوّ « وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » أى انقادت له فى التخلية ، وحق لها ذلك ، وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهىّ وقهره ومشيئته . وجواب (إِذَا) محذوف للتهويل بالإبهام . أى : كان ما كان مما لا يفى به البيان . أو لاقى الإنسان كدحه ، كما قال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ)

[٧] (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ)

[٨] (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)

[٩] (وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ » قال ابن جرير[2]: أى

(١) [٢٠ / طه / ١٠٦و١٠٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

إنك عامل إلى ربك عملًا فملاقيه به ، خيراً كان أو شرًّا . والمعنى : فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشانىّ : أى إنك ساع مجتهد فى الذهاب إليه بالموت . أى تسير مع أنفاسك سريعاً . كما قيل : أنفاسك خطاك إلى أجلك ؛ أو مجتهد مجدٌّ فى العمل، خيراً أو شرًّا، ذاهب إلى ربك فملاقيه ضرورة. قال : والضمير إما للرب وإما للكدح . وأصل الكدح جهد النفس فى العمل والكد فيه ، حتى يؤثر فيها . من (كدح جلده) إذا خدشه . فاستعير للجد فى العمل وللتعب ، بجامع التأثير فى ظاهر البشرة « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ » وهم من آمن وعمل صالحاً واتصف بما وصف به الأبرار، فى غير ما آية «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» قال ابن جرير[1]: بأن ينظر فى أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشانىّ : بأن تمحى سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية « وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أى : زوجته وأقاربه . أو قومه ممن يجانسه ويقارنه من أصحاب اليمين « مَسْرُورًا » أى بنجاته من العذاب ، أو بصحبتهم ومرافقتهم ، وبما أوتى من حظوظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ)

[١١] (فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا)

[١٢] (وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا)

[١٣] (إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا)

[١٤] (إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ)

[١٥] (بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٥ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ » أى أعطى كتاب عمله بشماله من وراء ظهره، وهو على هيئة المغضوب عليه، أمام الملك المنصرف به عن ذاك المقام إلى دار الهوان[1] (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ، وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) « فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا » أى ينادى بالهلاك وهو أن يقول : واثبوراه ! وواويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفه ، إذا قال والهفاه « وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا » أى يدخل ناراً يحترق بها « إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا » أى منعماً مستريحاً من التفكر فى الحق والدعاء إليه والصبر عليه . لا يهمه إلا أجوفاه، بطراً بالنعم، ناسياً لمولاه « إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ » أى لن يرجع إلى ربه، أو إلى الحياة بالبعث. لاعتقاده أنه يحيى ويموت ولا يهلكه إلا الدهر. فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالى ما ركب من المآثم، على خلاف ما قيل عن المؤمنين[2] (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)[3] (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ) « بَلَىٰٓ » أى ليحورن وليرجعن إلى ربه حياً كما كان قبل مماته « إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا » أى بما أسلف فى أيامه الخالية ، فيجازيه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ)

[١٧] (وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ)

[١٨] (وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ)

[١٩] (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ)

[٢٠] (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٢١] (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ)

(١) [١٦/ النحل/ ٦٠] . (٢) [٥٢/ الطور / ٢٦] . (٣) [٦٩/ الحاقة / ٢٠].

« فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ » وهى الحمرة فى الأفق من ناحية مغرب الشمس «وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » أى جمع وضمّ مما سكن وهدأ فيه من ذى روح كان يطير أو يدب نهاراً كذا قاله ابن جرير[1]، والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتمال الليل عليها. فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال[2] (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) « وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » أى اجتمع وتم نوره وصار كاملا « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ » أى حالاً بعد حال. والمعنىّ بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال. وبالثانية الحياة الأولى. وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها . فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفى ادكتناهها. وجوز أن يكون (طَبَقاً) جمع طبقة وهى المرتبة . أى لتركبن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من مواطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطبق معناه ما طابق غيره مطلقاً فى الأصل، ثم إنه خص بما ذكر، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و (عن) للمجاوزة أو بمعنى (بعد). والبعدية والمجاوزة متقاربان، لكنه ظاهر فى الثانى « فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحديث. وقد أقام لهم الحجة على التوحيد والبعث « وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ » أى لا يخضعون ولا يستكينون ولا ينقادون .

قال فى (الإكليل) : وقد استدل به على مشروعية سجدة التلاوة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ)

[٢٣] (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١١٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٣٨و٣٩] .

[٢٤] (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٢٥] (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ » أى بآيات الله وتنزيله ، المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره كما قال الإمام ، لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم . بلى ، قد بلغ وأقنع فيما بلغ . ولكن العناد هو الذى يمنعهم عن الإيمان ، ويصدهم عن الإذعان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل . وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ، فالإضراب يرمى إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق « وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » أى بما يسرون فى صدورهم من حقية التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغى والمكر ، فسيجزيهم عليه . ولذا قال « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » أى جزاء على تكذيبهم وإعراضهم وبغيهم « إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فآمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى (يؤمنون) وكونه منقطعاً أظهر لمجىء (لهم أجر) بغير فاء . والله أعلم .